ابن المستوفي

مستوفي أربيل
ووزيرها ومؤرخها واديبها

د . محسن محمد حسين

استاذ مساعد / قسم التاريخ - كلية التربية / جامعة بغداد

لم تأت تسمية كتابه «نباهة البلد الخامل بمن ورده من الاماثل» اعتباطاً . إذ صار البلد الخامل يُظهر نباهتَه ، ويَنفُضُ عن كاهله المُضني غُبارَ القرون . والبلد لكي يكون نابهاً عليه الا يفرض على نفسه العزلة . بل يدفُع الناسَ لكي يَردوا اليه ، ولم يتأتّ هذا إلا حين استتبّ الوضع في البلد ، وامتلأت خزينته ، لأن امواله لم تعُد تتسرب الى الخارج بفضل النظام الأتابكي الذي كان وليد النظام السلجوقي في تقسيم الدولة الى دويلات «اقاليم» لا يكون مسؤولها الأتابكي مسؤولاً عن اي شيْ أمام المركز سوى في تزويده بحاجته من الجند حين الحاجة وحسب مقدرة كل اقليم .

فانتعش البلدُ ، وكلُ بلدٍ على غرار اربيلَ .

نبذة عن حياة ابن المستوفي

ابو البركات المبارك بن ابي الفتح احمد بن المبارك بن موهوب . . . اللخمى الملقب شرف الدين ، المعروف بـ (ابن المستوفى الاربلي) ، كان رجلاً فاضلاً جليل القدر كثير التواضع . ولد بقلعة اربيل في النصف من شوال سنة ٥٦٤ هـ /

تموز ١١٧٠ م[١] ، اي ان مولده كان عقب وفاة مؤسس أتابكية اربيل زين الدين علي كوجك والد الملك المعظم مظفر الدين كَوكَبوري ، وتَصَلَّبَ عودُهُ مع عَودةِ كَوكَبوري الى اربيل ، حيث صار له من العمر اثنان وعشرون عاماً . وبذلك يكون قد عاصر حكم ولدي زين الدين علي كوجك وهما يوسف نيالتكين وكَوكَبوري ، وحين توفي الأخير كان ابنُ المستوفي يتسنّمُ وزارة اربيل . وبعد اربع سنوات استباحَ المغول اربيلَ ، اي سنة ٦٣٤ هـ / ١٢٣٦ م ، عندها غادر مدينته ليستقر في الموصل ، وتوفي فيها عام ٦٣٧ هـ / ١٢٣٩ م .

اسرته :

ابن المستوفي سليل اسرة من علية القوم انتماءً وحياةً وثقافةً . يقول المؤرخ الاديب كمال الدين المبارك المعروف بابن الشعار الموصلي : كان جَدُّهُ الرئيس ابو البركات المبارك بن موهوب من ذُرية الملك النعمان بن المنذر بن ماء السماء من ملوك الحيرة ، انتقل الى اربل هو واولادُه أثناء حكمِ (ابي الهيجاء الحسين بن الحسن بن موسى بن جكو الكردي الهذباني) صاحبها ، وتولّى الاستيفاء في ديوانه ، وهم أهلُ بيتٍ معروف الجلالة والرئاسة والاصالة . كان هو وابوهُ وجدُّ أبيه وعمه واخوانُه جميعاً ، قد عرفوا بالمستوفي . وكان المبارك ابو البركات (صاحُبنا) واسطة عقد البيت . . واليه انتهت رئاسة الاسرة الكريمة[٢] .

اي ان وجود هذه الاسرة في اربيل قديم يعود الى الفترة التي سبقت العهد الأتابكي . وان وظيفة الاستيفاء ظلت محصورة بابنائها طيلة اكثر من قرن .

اما عن ثقافة الأسرة ، فكان والده شاعراً[٣] . وعُرفَ عمُّهُ صفى الدين ابو الحسن علي بثقافته الغزيرة ، وهو الذي ترجم الى اللغة العربية «نصيحة الملوك» وهو كتاب جليل الأثر في اصول الحكم وادارة شؤون الدولة ، من تأليف حجة الاسلام ابي حامد محمد الغزّالي ، وكان هذا معروفا بين الناس[٤] .

شيوخُه : -

اضافة الى ان ثقافة ابن المستوفي كانت نتاج ثقافةِ اسرةٍ عُرفت باهتماماتها الثقافية ، فانه تتلمذَ على يدِ نخبةٍ من شيوخ عصره الذين زاروا اربيل في تلك الفترة ، وهذا يعني انه صارَ بوسع مؤسسات اربيل الثقافية برجال الفكر فيها – أن توفّرَ الزاد المعرفي لمن يبغي الحصول على اصناف العلوم العربية الإسلامية دون الحاجة الى الترحال الى مدنٍ اخرى ، إذ غدت هذه المدينة مركزاً ثقافياً مرموقاً في ذلك العصر ، ويستدل على ذلك بكثرة المؤسسات التعليمية فيها حيث بلغ عددُها اربع مدارس واربع خانقاهات وداراً للحديث ، اضافة الى زوايا التعليم في المساجد ، وكذلك قدوم هذا العدد الغفير من رجال القلم اليها . الذين خلدّ ابن المستوفي ذكراهم . ولعل المكانة العلمية الرفيعة التي بلغها ابنُ المستوفي تؤكد صواب ما ذهبنا اليه في قدرة المؤسسات العلمية في اربيل ، ومستوى العلماء الزائرين اليها . إذ لم يتسنّ له ان يغادر اربيل للتزود بالمعارف .

وابرزُ من تعلّمَ منهم من رجال الحديث والادب والنحو والرياضيات هو : موفق الدين محمد بن يوسف البحراني الاربلي المتوفي باربيل سنة ٥٨٥ هـ / ١١٨٩ م ، الذي إعتبرهُ اهلُ عصرهِ احدَ علمائِه ، وأنه كان اعلم الناس بالعروض والقوافي . وأحذقهم في نقد الشعر ، وأعرفهم بجيّده من رديئه[٥] . اضافة الى أنه كان يشتغل بعلوم الاوائل ، ولا سيما الرياضيات . ثم اكبّ على دراسة النحو ، وبلغ فيه الغاية وجاوز النهاية ، وصار فيه آية ، حسب تعبير تلميذِه ابن المستوفي[٦] . وقد تعلّم منه ابن المستوفي في شبابه الادب والشعر[٧] .

وكذلك تعلم على يد «محمد بن محمد بن ابي حنيفة البغدادي الذي زار اربيل سنة ٥٧٢ هـ / ١١٧٦ م ، اي في فترة حكم يوسف ينالتكين أخي كَوكَبوري ، ومدح والد ابن المستوفى . فكان منه «من الوالد» الا أن وعيّنه مؤدباً لولده ، وظل في اربيل

مدة طويلة (حوالي ٢٣ سنة) اي الى سنة ٥٩٥ هـ / ١١٩٩ م حين ورد اربيل الملكان : الملكُ المغيث فتح الله عمر والملك القاهر بهاء الدين ابنا السلطان الملك العادل (سيف الدين أبي بكر) الايوبي ، فاتّصل المؤدبُ البغدادي بهما فاصطحباه معهما الى الديار المصرية حيث بقي فيها الى ان مات سنة ٦٠٢ هـ / ١٢٠٥ م[٨] .

وتعلم الادب والنحو على يد (أبي الحرم مكي بن ريّان بن شبّه بن صالح الماكسيني الاديب والنحوي الكبير المتوفّى سنة ٦٠٣ هـ / ١٢٠٦ م[٩] .

وممن اتصل بهم ابنُ المستوفى في اربيل من رجال العصر وائمة الحديث فيه (ابو حفص عمر بن محمد بن المعمر المؤدب) المعروف بـ (ابن طبرزد) البغدادي المتوفى سنة ٦٠٧ هـ / ١٢١٠ م ، و (ابو علي حنبل بن عبد الله بن الفرج البغدادي الحنبلي) المتوفى سنة ٦٠٤ هـ / ١٢٠٧ م . وكان سبب ورودهما اربيل – كما يعلن ذلك ابن المستوفي – ان السلطان مظفر الدين گوگبوري لما بنى دار الحديث لم يكُنْ في هذه المدينة رجل يرقى الى مستوى التدريس فيها ، فاستشارَ ابنَ المستوفي بذلك قائلاً : كيف الطريقُ الى ذلك ، فقلتُ : .

احضارُ مشايخَ من بغدادَ عندهم حديث يُسمعُ عليهم ، ثم عيّنتهما (اي حددتُ اسم هذين الشيخين) لسماعِ «المسند» أي كتاب الامام احمد بن حنبل الشهير في الحديث ، فكتبَ گوگبوري كتاباً الى الديوان العزيز (اي الى بغداد) يطلُبُهُما ، وأنفَذَ لهما نفقةً تامة ، فوصلا في سنة اثنتين وستمائة فنزلا بدار الحديث باربل ، ثم غادراها – بعد أن أتمّا مهمتهما – الى دمشق عادا بعدها الى بغداد[١٠] .

والواقع ان عدم وجود من تُوكَلُ اليه مهمةُ رواية الحديث يؤكد ما كانت تعاني منه اربيل من فقر ثقافي يومئذ . .

هذا وتعلم ابن المستوفى كذلك على يد أبي ياسر عبد الوهاب بن هبة الله بن ابي حبّة ، وأبي المظفر المبارك بن طاهر الخزامى ، وأبي المعالي نصر الله سلامة الهيتي ، وأبي محمد عبد اللطيف بن الشيخ ابي النجيب السهروردي[١١] ، وغيرهم .

بيتُهُ :

يؤكد المؤرخون ان بيت ابن المستوفى كان مجمع الفضلاء والزوار الغرباء[١٢] ، لم يصل الى اربيل أحدٌ من الفضلاء الاّ وبادرَ الى زيارتهِ وحَمَلَ اليه ما يليق بحالهِ وتقرَّبَ الى قلبهِ بكل طريق وخصوصاً ارباب الادب فقد كانت سوقُهُم لديه نافقة[١٣] ، وقد اوردَ «البونيني» خبراً عن أحد الاجتماعات الادبية التي كانت تعقدُ في بيت ابن المستوفي ، ففي ذاتِ ليلة ارسلَ ابو المجد مجدُ الدين أسعد بن ابراهيم كاتبُ انشاء ديوان اربيل في عهد ملكها گوگبوري ، ارسلَ طبقاً فيه اصناف من الفواكه ، بينها السفرجل والتفاح ، بيدِ غلامٍ وسيم الى المجتمعين ، وكان هذا مناسبةً في فتح قريحة الحضور ودخولهم في مطارحات شعرية ، وكان بين الحضور شاعرُ اربيل حسام الدين عيسى بن سنجر بن بهرام بن خمارتكين المعروف بـ (الحاجري الاربلي) الذي ارتجل قصيدةً ضمنها بعض التشبيهات الطريفة[١٤] .

تلاميذُه وزوّارُه ومادحوهُ :

كثيرون من تتلمذوا على ابنِ المستوفي من الأرابلة ، الا أننا سنتناول رجالَ الثقافة المعروفين على نطاقٍ واسعٍ ممن تعلّموا منه جانباً من المعرفة حين زاروا اربيل ، او لزموا بيته فترةً من الزمن فقد ذكرَ زكيُّ الدين عبد العظيم بن عبد القوي المعروف بالمنذري المتوفى سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م الذي يُعدُّ من كبارِ كُتّاب العصر ، والعالمِ بسيَر رجاله ذكرَ أنَّ له من الشيخ ابن المستوفي اجازة[١٥] ، و يقصد بذلك اجازة رواية الحديث النبوي . وقريبٌ من هذا الكلام اعلنهُ ابنُ خلكان قائلاً : سمعتُ منه كثيراً ، وسمعتُ بقراءاته على المشايخ الواردين الى اربيل شيئاً

كثيراً[١٦] . ويصف المنذري استاذَه بالشيخ الأجل الفاضل المبارك ابن الشيخ الاجل .

اما كمال الدين المبارك بن ابي بكر بن حمدان (ت ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م) المعروف بـ (ابن الشعار الموصلي) المذكور[١٧] فلعله كان اكثر من لازمَ ابنَ المستوفي ، وقد وصفهُ بالعالم الاديب الحافظ الكاتب النحوى الشاعر المصنّف ، وأضفى عليه صفاتٍ مبالغاً فيها من قبيل : «الدر المنظوم» و (الزبرجد) و (العسجد) ثم (ذو القريحة المتوقدة) ، «شمس اربل وبدرها » و «عالمُها البارع وصدرُها» ، الذي لم تر الدنيا له نظيرا (كذا) ذو الفضل الكامل والجود الشامل والمحاسن الوافرة ، والمفاخر المتكاثرة والعقل الرصين . . الذي البسه الله من المكارم جلبابا . . ضافيا . . واعلم اهل الزمان . . الخ وكان ابن الشعار قد وصل محروسة اربيل في بداية سنة ٦٢٥ هـ ، ويقول : قصدتُ منزله المعمور . . فالفتُه ظاهرَ البِشر والكياسة ، صادقَ الظّنّ والفراسة ، شريف النفس كريمها ، واسع المروءة عظيمها[١٨] . وظل ابن الشعار صحبة استاذه ستة اعوام ، حسب ما ذكره .

وقد اورد ابنُ الشعار تراجمَ لشعراء عديدين ؛ ولا سيما من الاربليين الذين نظموا شعراً في مدح ابن المستوفى والاشادة بمكانته بينهم : محمد بن احمد بن عمر بن احمد . . الاربلي الكفرعزي . وكان من فتيان اربيل ومن شعرائها المُجيدين ، وقد تعلم على ابن الخباز النحوي الموصلي المعروف ، ومن اشعاره :

لا نـــــال قـــــلبي مـــــنكمو أملا
إن كـــان يومـــاً عن محبّـــتكـــم سلا
وحُـــرمتُ مـــا ارجوه من لُـــقيـــاكُـــمُ
إن حـــلّ في قـــلبي سواكـــم أو حلا[١٩] .

ومدحه الشاعرُ يونس بن سعيد بن عيسى . . الخراط الاربلي ، وكان من اهل القرآن الكريم والفضل ، خيّراً متديّنا ، استُشهدَ كما يقولُ ابن الشعار في المسجد الجامع في الوقعة المشهورة حين دخل التتار اربيل في شوال ٦٣٤ هـ . وقد قرأ قصيدتَهُ الدالية على مسامع ابن الشعار[٢٠] . وكذلك مدحه الشاعر سلمان بن كيلوك بن عثمان الاربلي . ومحمد بن يونس بن ابي البركات الموصلي ، ومحمد بن مكي بن عبد الله الاربلي . ومحمد بن الحسين بن ابي بكر الموصلي . ومحمد بن محمد بن المبارك بن جبريل الاربلي ، والشاعر يعقوب بن نصر بن يعقوب البغدادي الدارقزيّ ، وغيرهم[٢١] .

اما ياقوت الحموي البلداني الشهير الذي زار اربيل لمرتين[٢٢] والذي كَتَبَ وصفاً وافياً لها ولقلعتها وسوقها وكهاريزها العذبة في عهد مظفر الدين كوكبوري فقد قال عن ابن المستوفى : دخلتُ اربلَ فلم أرَ فيها من يُنسَبُ الى فضلٍ غيرَ ابي البركات المبارك بن احمد بن المبارك الذي يعرف بالمستوفي ، فانه متحقّق بالادب مُحِبٌّ لأهلِهِ . مَفضَّلٌ عليهم ، وله دينٌ واتصالٌ بالسلطان ، وخِلّةٌ شبيهةٌ بالوزارة ، وقد سَمع الحديث الكثير ممن قدِم عليهم باربلَ ، والّف كُتباً وقدأنشدني من شعره وكتب لي بخط يده قطعاً ، منها :

تذكرنيك الـــريح مـــرّت عـــلـــيـــلـــةً
على الـــروضِ مـــطلولا وقـــد وضحَ الـــفـــجـــرُ
ومـــا بـــعُـــدَتْ دار ولا شَطَّ مـــنـــزلٌ
إذا نحنُ أدْنـــتـــنـــا الأمـــانيُّ والـــذكـــرُ[٢٣]

مؤلفاته :

صَنَّفَ ابنُ المستوفي كُتُباً عديدة ذكَرَها المؤرخون وهي :

١ – كتاب «النظام في شرحِ شعرِ المتنبّي وأبي تمام» في عشر مجلدات .

٢ – كتاب «أبياتُ المحصَّل في نسبةِ ابياتِ المفصَّل» في مجلدين ، تكلم فيه عن الابيات التي استشهدَ بها الزمخشري في كتابه المعروف (المفصّل في النحو) .

٣ – كتاب (سرُ الصَنعة) يصفه ابن الشعار بانه مجلّد لطيف صنّفه للوزير ولي الدين ابي الثناء محمود بن محمد الحرّاني وزير الملك المعظم مظفر الدين گوگبوري .

٤ – كتاب (ابا فماش) جمع فيه أدباً كثيراً ونوادرَ وغيرها[٢٤] .

٥ – كتاب (موجبات الصبوة وعزائم السلوة) يتضمن نبذا من أمور العشق واسبابه ، واشعاراً في الصبابة .

٦ – كتاب (في صناعة البديع)

٧ – كتاب (الممتع المزمن) ذكر فيه شعراء صدر الدولة العباسية ، من بشار بن برد الى شعراء زمانه .

٨ – كتاب (الخيل)

٩ – كتاب (جامع الاوراق) يتضمن اشعاراً وحكايات واخباراً وامثالاً وفوائد .

١٠ – كتاب (قناعة الناظر وكفاية المحاضر) وفيه ملح الاشعار ومختارها .

١١ – كتاب (مشارق الانوار ومطالع العذرا) .

١٢ – كتاب (الأمثال والأضداد) في سرقات الشعر المحمودة والمذمومة وهو مبوب ابواباً في فنون الشعر .

١٣ – كتاب (حاجة الكاتب والشاعر من ضرورة الشعر) ، وفيه يتحدث عن علم العروض والقوافي

١٤ – تاريخ اربل : او «نباهة البلد الخامل بمن ورده من الاماثل في تاريخ اربل» .

فهو الكتاب الذي نال عنه ابن المستوفي شهرته بين المؤرخين .

ويشتمل على تراجم رجالات اربيل ومن ورد اليها من الملوك والزهاد والعلماء والشعراء . وكان الكتاب يقع في اربع مجلداتٍ حسب ما يذكره المؤرخون[٢٥] الا ان السخاوي ينفردُ بالقول أن الكتاب يقعُ في خمسِ مجلدات[٢٦] ، وينقل (فرانز روزنتال) عن السخاوي هذا في كتاب (علم التاريخ عند المسلمين) ، ولعل احدَ الكتبة استنسخهُ وجعله في خمسِ مجلدات . والمتبقّي من هذا الكتاب هو نسخة مستنسخة (غير أصلية) من الجزء الثاني فقط ، وتم ذلك بعد وفاة ابن المستوفي باربع سنوات . وقد قام الاستاذ الفاضل الدكتور سامي الصفار الاستاذ في كلية الآداب بالرياض / المملكة العربية السعودية ، بتحقيقهودراسته دراسة متأنية دقيقة ونال عنها درجة الدكتوراه من جامعة كمبرج (بريطانيا) قبل اكثرَ من عشر سنين ، وقامت وزارة الثقافة والاعلام مشكورة بطبعه سنة ١٩٨٠ .

وهذا الكتاب الذي خلّد اسم اربيل ، يشبه في منهج تأليفه وفحواه كتاب (تاريخ بغداد) للخطيب البغدادي ، او (تاريخ دمشق)لابن عساكر . وقد عكس هذا الكتاب الوضع الثقافي في هذه الامارة في ذلك العصر بالقاء الضوء الكاشف على مؤسساتها وزوارها ومكانتهم العلمية ، تلك الاوضاع التي مهدت لظهور الاسر العلمية فيها مثل اسرة ابن خلكان المعروفة واسرة ابن المستوفي واسرة ابن منعة ذات المكانة العلمية المرموقة في تاريخ المنطقة يومئذ ، وغيرها ، اضافة الى ظهور عشرات من الاسماء التي لمعت في مجالات الثقافة المختلفة والواقع ان هذه الطفرة العلمية في تاريخ اربل لم تكن لتحصل دون اسباب ، ولعل من أهمها استقرار الوضع السياسي والاقتصادي ، ووجود رجال متنفذين حريصين على دفع عجلة المجتمع الى الامام ، وكانت جهود السلطان مظفر الدين گوگبوري في هذا الصدد جهوداً استثنائية ، مضافة اليها جهود كل من (سرفتكين) و (قايماز) نائبي زين الدين علي كوچك والد گوگبوري .

شاعرية ابن المستوفي

كان اهتمامُ ابن المستوفي بالأدب ودراسته ونقده اساسَ ثقافتِه الثرّة ، بل كانت شهرته – في عصره – كأديب ، فاقت شهرته كمؤرخٍ أو وزيرٍ او مستوفٍ ، ولا أدلّ من كثرةِ تآليفهِ في هذا الصدد ، كما اسلفنا ذلك ، في حين ليس له في المجالات الاخرى سوى كتابه في تاريخ اربل ، الذي لا يُعتبُر كتابَ تاريخٍ بالمعنى الدقيق ، بقدر ما يُعتبر كتاب تراجم . .

وكذلك يتجلّى اهتمامه بالادبِ – ولا سيما الشعر – من الابيات الشعرية – المبثوثة في كتبٍ عديدةٍ . وعن هذا الشعر قال القاضي والمؤرخ والأديب الكردي الاربيلي ابن خلكان : ان ابن المستوفي كان له ديوان شعر اجاد فيه . ومن شعره

البيتان اللذان كثيراً ما يستشهدُ بهما كُتّاب الادب ، والذي يتغزل فية بالبيضاء التي يفضلها على السمراء :

لا تخدعنَّكَ سَمـــرةٌ غـــرّارةٌ
مـا الـحُسنُ الاّ لـلـبـيـاضِ وجـنسِـهِ
فـالـرمحُ يـقـتُـلُ بـعضُـه من غَـيْـرِهِ
والسـيفُ يـقـتُـلُ كـلُّـهُ من نـفسِـهِ

ومن اشعاره التي يتغنّى بها قوله :

يـالـيـلـةً حتى الصـبـاح سَهْـرتُـهـا
قـابـلـتُ فيـهـا بـدرَهـا بـأخـيـهِ
سَمَحَ الـزمـانُ بها فـكـانتْ لـيـلـةً
عَـذُبَ الـعـتـابُ بها لـمُـجـتَـذِبـيـه
أحـيـيـتُـهـا وأمَـتُّـهـا عن حـاسدٍ
مـا هَـمَّـهُ الا الحديثُ يَشـيـهِ
ومُـعـانقي حُـلُـو الشمائِـلِ اهـيـفٌ
جُـمِـعَـت ملاحَـةُ كـلّ شيءٍ فـيـهِ
يختـالُ مـعـتـدلاً فـان عَـبثَ الصَـبـا
بـقـوامـهِ مُـتـعـرّضـاً يثـنيه
نشوانُ تهجُـمُ بي عـلـيـه صَـبـابتي
ويردُّني وَرَعي فـاستَـحـيـيـهِ
عَـلِـقـت يَـدي بـعـذارِهِ وبخدّهِ
هـذا أقـبـّلُـه وذا أجـنـيـهِ
لوْ لَـمْ تخالـطْ زُفـرَتي انـفـاسُهُ
كـانـت يـنـمُّ بـنـا الى واشيـهِ
حَسَدَ الصباحُ الـلـيـلَ لمّا ضَـمَّـنـا
غَـيْـظـاً فـفـرّقَ بـيْـنَـنـا داعـيـهِ[27]

وله :

رعى الله لـيـلاتٍ تَـقَـضَّتْ بـقـربـكـمُ
قِصـارا وحـيّـاهـا الـحَـيـا وسَقـاهـا
فما قـلـتُ إيـهٍ بـعـدَهـا لمسافـرٍ
من الـنـاسِ الا قال قـلـبي : آهـا[28]

وكان ابن المستوفي قد خرج من مسجد بجوار منزلهِ ليلاً ، فوثبَ عليه شخصٌ مجهولٌ وطَعَنَهُ بسكّينٍ قاصداً قلبهُ ، فالتقى الضربة بعضُدِهِ فجرحته جراحة واسعَة ، فأحضر في الحالِ المزّينُ (المطبب) فخاط الجروحَ ومرَّضها وقطها باللفائف ، فكتبَ يشكو الى الملك المعظم مظفر الدين كَوكَبوري ويطالعه بما حصل له)في هذه الابيات التي ذكرها ابن خلكان وقال اني اذكر القصة وانا يومئذ صغير[29] ، والابيات :

يـــاايها الملكُ الـــذي سطواتُـــهُ
من فِـعـلـهـا يـتـعـجّبُ المريخُ
آيـات جُودِكَ مُحْكَمٌ تـنـزيـلـهـا
لا نـــاسخٌ فيـهـــا ولا مـــنسوخٌ
أشكو إليكَ ومـا بُـلـيتُ بمثـلـهـا
شنـعـاء ذكـرُ حـديثهـا تـاريخُ
هي لـيـلـة فيـهـا ولـدتُ وشاهـدي
فيما ادعـيـتُ الـقـمـطُ والتمريخُ[30]

وكان ابنُ المستوفي يقول : عملتُ في نومي بيتين وهما :

وبُـتـنـا جـمـيـعـاً وبـاتَ الـغـيورُ
يـعـضُّ يـديـه عـلـيـنـا حـنَـقْ
نودُّ غـرامـا لو انّـا نـبـاع
سواد الـــدُجى بسواد الحدق[31]

تقلُّده لمناصبَ في عهد كَوكَبوري :

كما ذكرنا آنفاً ، ينتمي ابن المستوفي الى أسرةٍ تولّت مهمّة الاستيفاء في اربيل منذ فترة طويلة . . والاستيفاء في بلاد اربيل – كما يقول ابنُها (ابنُ خلكان) منزلة علية ، وهو يلي الوزارة[32] ، لانه من الوظائف الرئيسية في ادارة امور الدولة المالية في الضبط والتحرير ومعرفة اصول الاموال ووجوه صرفها[33] ، ويقوم متوليها بمطالبة المستخدمين بما يجب عليهم رفعه من الحساب في اوقاته ، ويُنَسِّبُهُ على ما يجبُ استخراجه

من المال في وقته المحدد ، ويقوم بعمل قوائم في المطالبات[٣٤] . ويقول القلقشندي مضيفاً : انه لعِظَم موقع متولّي الاستيفاء وُصِفَ انه «قطب الديوان»[٣٥] . ولا عجب في هذا التعريف إذا ادركنا ان المستوفي كان المسؤول عن مراقبة حسابات الدولةِ وكتابةِ الكشوف بخطّهِ ونسخِ المحرّرات[٣٦] ، وجمع الحواصل من العينِ والغلالِ والكراعِ «الدواب» والاصناف المعدودةِ والموزونةِ والمذروعة ، وغير ذلك[٣٧] .

وكانت هذه الوظيفة موجودةً في ديار اربيل قبل العهد الأتابكي ، اي في عهد الامارة الهذبانية[٣٨] ، الامارة التي انتقلت في عهدها اسرةُ جد (ابن المستوفي) الاكبر الى اربيل في عهد اميرها (ابي الهيجاء الحسين بن الحسن بن موسى بن جكو الكردي الهذباني) . وقد تولّى هذا الجدُّ «الاستيفاء» في ديوان هذا الامير . ويقول ابن الشعار : ان اسرةَ الجد وذريتَهُ عُرِفتْ بـ «المستوفي» لأن الكثير من افرادها تولّوا الاستيفاء فيها ، فقد تولاّه جَدُّهُ بعد جَدّهِ الاكبر ، ثم تولاه والدُه وعمّه وأخواهُ ، وكان (ابن المستوفي) واسطة عِقدِ هذا البيت الكريم المحتد . واليه انتهت رياستهم[٣٩] .

اما ابنُ خلكان فلا يتحدث سوى عن اشتغال والدِ (ابن المستوفي) وعمّهِ صفي الدين أبي الحسن علي بن المبارك ، ونخالُ ان ابن الشعار كان اكثر اطلاعاً بتاريخ الاسرة ، لأنه صاحَبَ ابنَ المستوفي عَقداً من السنين ، بعد ان صار (ابنُ المستوفي) شخصاً يُشارُ إليه بالبنان ، في حين ان ابن خلكان قد غادرَ اربيلَ في سنٍ مبكرةٍ .

وقد أبدى ابنُ المستوفي لدى إشغاله هذه الوظيفة براعةً في علمِ الديوان وضبطِ قوانينهِ[٤٠] ، وظل يخدمُ الديوان الاميري مدةَ اربعين سنة دون مقابل ، إذ لم يقبض خلالها جرايةً «راتباً»[٤١] . ولعلّه آثر السلامةَ لما عُرِفَ عن مظفر الدين كَوكَبوري اعتقاله للكثيرين من متولّي دواوين وارباب دولتِهِ[٤٢] . ومع ذلك فان ابن المستوفي لم يسلَمْ من سُخطه ، إذ اعتقله وقيّده بقيدٍ ثقيلٍ ، وأخذ منه مبلغ سبعة الاف دينار مصادرةً ، استدان بعضَها والباقي استأصلَهُ من وارِدِ املاكِهِ بساتينه . . ثم أطلقَهُ سنة ٦٢٩ هـ / ١٢٣١ م ليوليه وزارة اربيل إثر اعتقالِ الوزير السابق شرف الدين ابراهيم بن علي بن الوالي الموصلي مع اخيه تاج الدين[٤٣] . وعلى الرغم من أنّ ابنَ المستوفي لم يكن راضياً عن مهمته الجديدة كما يقولُ تلميذه ابن الشعار – إلا أنّهُ أبدى مقدرةً فائقةً وكفاءةً في ادارة الامور السلطانية ونهوضاً بادوات المُلك[٤٤] ، وقد استبشرَ الناسُ كثيراً بعودة ابن المستوفي الى الحكم بعد ان رفع صاحبُ اربيل منزلَتَهُ وعيَّنهُ وزيراً ، إلا أنّ عهدَه في الوزارة لم يطُل ، إذ توفي مظفر الدين كَوكَبوري سنة ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ م ، عندئذ رفض ابنُ المستوفي أن يستمرَّ وزيراً ، رغم الحاح الامير شمس الدين باتكين بن عبد الله الرومي الذي انتدبه الخليفة المستنصر بالله العباسي لحكمِ أربيل بعد إلحاقها بالدولة العباسية . وطلب الاميرُ باتكين منه ان يكونَ نائبهُ في الاشغال الديوانية ومنحهُ صلاحياتٍ واسعة في الامر والنهي ، وسلّم اليه مقاليدَ الامور ، وقطَعَ له جارياً (مرتّباً) سنياً يصلُ اليه رأسَ كلّ شهر ، فاعتذرَ ابن المستوفي عن كل ذلك وحجته انه صار شيخاً ليس بوسعه ادارة الشؤون الاميرية ، وتنفيذ مهمّاتٍ كبيرة ، وآثرَ حياةَ العُزلة على تقلّد المناصب الديوانية[٤٥] .

وانزوى في بيته ، وكان الناسُ يلازمون خدمته ؛ كما يقول ابنُ خلكان الذي كان يتابعُ أخباره عن كَثَب ، وهو بعيدٌ عن اربيل منذ ان غادرها الى الشام ومصر في رمضان سنة ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م . . وظل ابنُ المستوفي على حاله هذه الى أن أخذَ التترُ اربيلَ سنة ٦٣٤ هـ / ١٢٣٧ م ، وجعلوها كجوف حمار ، على حد قول (ابن ابي الحديد)[٤٦] ، وجرى عليها وعلى أهلها ما قد اشتهر ، وكان ابنُ المستوفي في جملة من اعتصمَ في القلعةِ وسَلِمَ من انتقام الغزاة . وحين هدأت الاوضاع ، ارسل بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل في إثْرِهِ ، وانتدب اليه جِمالاً وبِغالاً تحملُ كتبَه وأمتِعَتَهُ ، فغادرَ ابنُ المستوفي اربيل ودخلَ الموصل في شوال ٦٣٤ هـ / ١٢٣٧ م ، واستقبله الصاحبُ المذكور بالاكرام

الوافر والتبجيل والحرمة التامة ، وانزله في دار هُيّئت له برسمِه[٤٧] .

وثمة من يرى ان من المحتمل جداً ان يكون أبن المستوفى قد استأنف في الموصل اهتمامه السابق بتنظيم شؤون الديوان وضبط قوانينه ، وانه قد تمّت الاستعانة بخبرته في هذا الصدد[٤٨] . رغم اننا نستبعدُ حصولَ ذلك ، فقد سبقَ له أن رفضَ العملَ في ديوان اربيل في عهدِ مظفر الدين گوگبوري ، او في عهد شمس الدين باتگين نائب الخليفة العباسي (كما رأينا) . ولا سيما أنه جاوز السن التي تؤهّله للقيام بمثلِ تلكَ المهام المُجهِده ، اذ أنه قاربَ السبعين حين وصل الى الموصل .

وفاةُ ابن المستوفي

عاش ابنُ المستوفي في الموصلِ أقلَّ من ثلاثِ سنين . وتوفي فيها يوم الأحد (٥ محرم سنة ٦٣٧ هـ / ٧ آب ١٢٣٩ م) ، ودُفنَ في مقبرة السابلة خارج باب الجصاصين[٤٩] ، اي أنه عاش حوالي (٧٢) سنة قمرية (٦٩) سنة شمسية . وقد رثاهُ العديدُ من الشعراء بينهم الشاعر أبو العز يوسف بن النفيس الاربلي المعروف بـ (شيطان الشام) المتوفي سنة ٦٣٨ هـ /١١٤١م بقوله :

ابو البركـــــاتِ لو دَرَت المنـــــايـــــا
بـــأنك فـــردُ عصـــرِكَ لم تصـــبـــكـــا
كفى الاسلامَ رزءاً فـــقـــدُ شخصٍ
عـلـيـه بـأعـيُـن الـثـقـلـيـنِ يُـبـكـى[٥٠]

اما ابنُ خلكان فقد قال : لولا خوف الاطالة لذكرتُ كثيراً من وقائع حياة ابن المستوفى واخبارِه وما جَرَياتِه وتفاصيل احوالِه وما مُدح به ، لأنه – رحمهُ الله – كان من محاسن وقتِهِ ، ولم يكن في آخر الوقت في ذلك البلد – يقصد اربيل – مثلُه في فضائلِه ورئاستِهِ[٥١] .

وهكذا انطفأت جذوة تلك النباهة . وخَفَتَ ذلك اللألأء الذي لاح فترة من الزمن ، وعادت المدينةُ الى سابق خمولها ، حسب قول الباحث المحقق الكبير الدكتور احسان عباس[٥٢] .

الهوامش

١ – المنذري ، التكملة لوفيات النقلة جـ ٨ ص ٣٢٢
ابن خلكان ، وفيات الاعيان جـ ٤ ص ١٥١
٢ – ابن الشعار ، عقود الجمان ، جـ ٦ ترجمة المبارك بن احمد ورقة ٢٢
٣ – المنذري ، مصدر سابق ، ص ٣٢٣
٤ – ابن خلكان ، مصدر سابق ، نفس الصفحة .
٥ – ابن خلكان ٤/ ١٠٤ . ابو الفداء ، المختصر : ٣/ ٧٧ السيوطي ، بغية الوعاة : ١/ ٢٨٦ .
٦ – السيوطي ، ١/ ٢٨٦ نقلاً عن ابن المستوفي
٧ – ابن خلكان ٤/ ١٠٤
ابن قاضي شهبة ، مخطوط (طبقات النحاة واللغويين) ق ١ ورقة ١٣٣
٨ ابن الشعار ، عقود الجمان . (جـ ٦ ترجمة محمد بن محمد بن ابي حنيفة)
الصفدي . العراق بالوفيات ، جـ ١ ص ١٤٣ ١٤٤
٩ – المنذري ، التكملة ، جـ ٨ ص ٣٢٢
ابن خلكان ، وفيات ، ٤/ ٣٦٥
١٠ – ابن المستوفي ، تاريخ اربل ، ص ١٥٩ / ١٦٠
١١ المنذري ، ٨/ ٣٢٢
١٢ – المنذري . ن . م . ص . شذرات الذهب ٥/ ١٨١
١٣ – ابن خلكان ، ن . م . ص : ١٤٧
اليافعي ، مرآة الجنان : جـ / ٩٦
١٤ – اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ١/ ١١٣ .
١٥ – المنذري ، التكملة ، ٨/ ٣٢٢
١٦ – وفيات الأعيان : ٤/ ١٤٨
١٧ – انظر عنه اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ١/ ٣٣
الذهبي ، العبر ٥/ ٢١٩ . الخزرجي ، العسجد المسبوك . ورقة ٥٢٨ – ٥٢٩ شذرات الذهب ٥/ ٢٦٦
١٨ – عقود الجمان (جـ ٦ ورقة ١٨)
١٩ – ن . م . جـ ٧
٢٠ – عقود الجمان جـ ١٠ ورقة ، ٢٨٢ب
٢١ – تراجمهم في عقود الجمان
٢٢ – وفيات الاعيان ، ٦٠/ ١٢٨
٢٣ – معجم البلدان ١/ ١٣٨
٢٤ – ابن خلكان : ٤/ ١٤٧ – ١٤٨ اليافعي . مرآة الجنان ٤/ ٩٦
الحنبلي . شذرات الذهب ٥/ ١٨٧
٢٥ – ابن خلكان . السيوطي . البغية ٢/ ٢٧٢ . طاش كبري زاده . مفتاح السعادة ١ ٢٦٩ .
ابن العماد الحنبلي ٥/١٨٧. الخوانساري . روضات الجنات ٦٥٧

٢٦ – الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، ص ١٢١

٢٧ – ابن خلكان : ٤ ص ١٤٨

٢٨ – ن . م . ص .

٢٩ – حدث هذا (كما يقول ابن خلكان) سنة ثماني عشرة وستمائة ، وابن خلكان لم يتجاوز العاشرة ، اذ ولد في اربيل سنة ٦٠٨هـ/١٢١١م (وفيات الاعيان . ترجمة زينب ام المؤيد الشعري ، ٢/٣٤٤) .

٣٠ – وفيات الاعيان ، ٤/ ١٤٩

٣١ – ن . م . ص .

٣٢ – ن . م . ص : ١٥٠ وانظر البنداري تاريخ آل سلجوق ص ٩٢ .

٣٣ – القلقشندي . صبح الاعشى : ٤/ ٣٠ .

٣٤ – ابن مماتي ، قوانين الدواوين ، ص ٣٠١ .

٣٥ – القلقشندي ، صبح الاعشى : ٥ / ٤٦٦

٣٦ – النويري ، نهاية الارب : ٨/ ٣٠٢

٣٧ – ن . م . ص .

٣٨ – ابن الشعار ، ٦/ ١٧

٣٩ – ن ، م . ص .

٤٠ – ابن خلكان ، ٤/ ١٤٧

٤١ – ابن الشعار .

٤٢ – ن . م : ٩ ورقة ٩٣

٤٣ – ن ، م . ٤ ورقة ١

٤٤ – ن . م . ٦ ورقة ١٨

٤٥ – ن . م . وابن خلكان ٤/ ١٥١

٤٦ – شرح نهج البلاغة ، ٣/ ٨١

٤٧ – ابن الشعار ، وانظر ابن خلكان

٤٨ – د . سوادي عبد محمد الرويشدي . امارة الموصل في عهد بدر الدين لؤلؤ ، ص : ١٩٦

٤٩ – باب الجصاصين من ابواب الموصل ، وكان يقع في الجنوب الغربي منها (د . سوادي الرويشدي . مصدر سابق ص ٢٧٢) ولعله كان يقع قريباً من المحل الذي يلتقي عنده شارع ابن الاثير وشارع نينوى في الوقت الحاضر (سعيد الديوه جي : الموصل في العهد الأتابكي ، ص : ١٢٢) .

٥٠ – ابن خلكان ٤/ ١٥٢ اليافعي ، مرآة الجنان ٤/ ٩٧

٥١ – ابن خلكان : ن . ص .

٥٢ – مقدمة جزء (٧) من وفيات الاعيان صفحة ١٥) .

مصادر البحث

١ – ابن الحديد ، ابو حامد عز الدين عبد الحميد بن هبة الله المدائني (ت ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م) .
شرح نهج البلاغة ، ط دار مكتبة الحياة ، بيروت ١٩٦٣ .

٢) ابن خلكان ، ابو العباس شمس الدين احمد بن محمد بن ابي بكر بن خلكان (ت ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م)
وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق هـ . احسان عباس ، ط دار الثقافة بيروت ١٩٦٨

٣ – ابن الشعار ، ابو البركات كمال الدين المبارك بن ابي بكر بن حمد ان / ت ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦م) عقود الجمان في شعراء هذا الزمان . مخطوط مصور عن النسخة الفريدة الموجودة في مكتبة السليمانية استانبول .

٤ – ابن العماد الحنبلي ، ابو الفلاح عبد الحي بن العماد (ت ١٠٨٩ هـ / ١٦٧٨ م) شذرات الذهب في اخبار من ذهب مطبعة القدسي القاهرة ط ١٩٣١ م .

٥ – ابن قاضي شهبة ، ابو بكر بن احمد بن محمد الاسدي (ت ٨٥١هـ / ١٤٤٧ م) طبقات النحاة واللغويين ، مخطوط مصور من المكتبة المركزية رقم م خ ١٢٤ ق ١ و ٢ .

٦ – ابن المستوفي ، ابو البركات شرف الدين المبارك بن احمد الاربلي (ت ٦٣٧ هـ / ١٢٣٩ م) تاريخ اربل . تحقيق د . سامي بن السيد خماس الصفار . منشورات وزارة الثقافة والاعلام – العراق بغداد . ١٩٨٠ .

٧ – ابن مماتي ، الأسعد بن الخطير المهذب المصري (ت ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م) قوانين الدواوين ، تحقيق عزيز سوريال عطية . طبعة مصر ١٩٤٣ م .

٨ – البنداري قوام الدين الفتح بن علي (ت ٦٤٢ هـ / ١٢٤٣ م) تاريخ دولة آل سلجوق طبع شركة طبع الكتب العربية . مطبعة الموسوعات ١٩٠٠ م .

٩ – الخزرجي ، ابو العباس اسماعيل بن العباس الغساني (ت ٨٠٣ هـ / ١٤٠٠ م) العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك (دراسة وتحقيق د . شاكر محمود عبد المنعم رسالة ماجستير . ١٩٧٠) .

١٠ – الخوانساري ، محمد باقر الموسوي الاصفهاني (الفه سنة ١٢٨٧ هـ / ١٨٧٠ م) روضات الجنات طبع حجري١٣٦٧ هـ .

١١ – الذهبي ، ابو عبد الله شمس الدين محمد بن احمد الدمشقي (ت ٧٤٨ هـ / ١٣٢٧ م) العبر في خبر من عبر تحقيق د . صلاح الدين المنجد ، فؤاد سيد . مطبعة حكومة الكويت – ١٩٦٦ .

١٢ – السخاوي ، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٠٢ هـ / ١٤٩٦ م) الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ . مطبعة الترقي . (دمشق : ١٩٣٠) .

١٣ – السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر (٩١١هـ/١٥٠٥م) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة . تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ١٩٦٥ .

١٤ – الصفدي ، صلاح الدين خليل بن ايبك (ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٣ م) الوافي بالوفيات . ط دار النشر فرانز شتاينر – فيسبادن – المانيا .

١٥ – طاش كبرى زاده ، احمد بن مصطفى (ت ٩٦٨ هـ / ١٥٦١ م) مفتاح السعادة ومصباح السيادة . نشر دار الكتب الحديثة . مطبعة الاستقلال الكبرى . القاهرة ١٩٦٨ .

١٦ – القلقشندي ، ابو العباس احمد بن علي (ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) صبح الاعشى من صناعة الانشا ، المطبعة الاميرية .

١٧ – المنذري ، ابو محمد زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي (ت ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م) التكلة لوفيات النقلة . تحقيق د . بشار عواد معروف . مطبعة عيسى البابي الحلبي . القاهرة ١٩٧٦ .

١٨ – النويري ، شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب (٧٢٣ هـ / ١٣٣٢ م) نهاية الارب في فنون الادب . دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٥٤ .

١٩ – اليافعي ، ابو محمد عبد الله بن اسعد بن علي اليمني المكي (ت ٧٦٨ هـ / ١٣٦٦ م) مرآة الجنان وعبرة القطان . ط ٢ منشورات مؤسسة الاعلمي للمطبوعات ١٩٧٠ م .

٢٠ – ياقوت الحموي ، ابو عبد الله شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي (ت ٦٢٦ هـ ١٢٢٨ م) . معجم البلدان . ط دار صادر – دار بيروت – ١٩٥٥ .

٢١ – اليونيني ، ابو الفتح قطب الدين موسى بن محمد البعلبكي (ت ٧٢٦ هـ / ١٣٢٦م) ذيل مرآة الزمان . ط حيدر آباد الدكن ١٩٥٤ م . .